

السكن الريفي "Mapalia" أنموذجا لتطور العمارة المدنية في بلاد المغرب القديم. Rural housing "Mapalia" is a model of the development of civil architecture in the ancient Maghreb

د. / راشي نجوى

جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2

البريد الإلكتروني: n.rachi@univ-setif2.dz

الملخص:

يعدّ المسكن من أهمّ المظاهر الحضارية الخاصة بالأسرة الليبية القديمة، لأنه بمثابة الستار الذي تكتسيه لتعبّر عن كلّ ممارستها الاجتماعية، ورغم بساطة المسكن الليبي مقارنة بالحضارات القديمة، إلّا أنّه استطاع أن يحفظ خصوصية الأسرة الليبية، وقد اختلفت أنواع هذه المساكن باختلاف نمط المعيشة وتنوع الأقاليم المناخية والتضاريسية، حيث لجأ في بداية الأمر إلى الاحتماء من قساوة الطبيعة إلى الكهوف والمغارات، ولكن بحكم تطور ضميره التفكير وحاجته الماسة إلى الغذاء ومصادر المياه بدأ الاهتمام بحياة الترحال والنشاط الرعوي أكثر، هذا الأمر أجبره على ضرورة التلاؤم مع هذا النمط الجديد من المعيشة وصنع مساكن تتماشى وحياة التنقل والترحال ضمن ما يعرف بالمباليا المتنقلة، هذا المصطلح الذي اختلف المؤرخون في تحديد جذوره التاريخية؟

في هذه الدراسة سوف نحاول تسليط الضوء على هذا المسكن المحلي المتنقل الذي لطالما تواجدت مراكزه في المناطق الريفية، غير أن هذا الأمر لم يمنع الاعتماد عليه في الحملات العسكرية، أين استخدم كملاجئ حربية متنقلة للقادة والجنود، وعلى هذا الأساس نطرح الإشكالية التالية: ما المقصود بمصطلح المباليا؟ ما هي الأسباب المؤدية للاهتمام بهذا النموذج العمراني؟ وما هي الشواهد التاريخية التي تثبت مدى صحة انتشار هذه العمارة الريفية في بلاد المغرب القديم؟

الكلمات المفتاحية: السكن المحلي؛ المباليا؛ الخيام؛ الرحل؛ النشاط الرعوي؛ الأكواخ المستديرة.

Abstract:

The dwelling is one of the most important cultural manifestations of the ancient Libyan family, because it serves as a curtain that it acquires to express all its social practice, and despite the simplicity of the Libyan dwelling compared to ancient civilizations, he was able to preserve the privacy of the Libyan family, and the types of these dwellings differed depending on the lifestyle and the diversity of climatic and terrain regions, where he initially resorted to more pastoral, this forced him to the need to adapt to this new style of living and make dwellings The life of mobility and travel is consistent within what is known as mobile apathy, this term, which historians have differed in determining its historical roots?.

In this study, we will try to shed light on this mobile local dwelling, whose centers have always been located in rural areas, but this did not prevent relying on it in military campaigns, where it was used as mobile war shelters for commanders and soldiers, and on this basis we pose the following problem : what is meant by the term mapalia, What are the reasons for the

interest in this urban model , And what are the historical evidences that prove the validity of the spread of this rural architecture in the ancient Maghreb?.

Keywords: Local housing; Mapalia; Tents; Nomads; Pastoral activity; Round cottages.

مقدمة:

يعتبر السكن من الحاجات الضرورية لكل المجتمعات البشرية، أين تمارس فيها احتياجاتها الاجتماعية الطبيعية، لأن تحت سقفه يجتمع أفراد الأسرة الواحدة، ويستظلون ويحتمون من جميع الظروف القاسية، وفيه يجدون استقرارهم وأمنهم، وبين جدرانهم يحفظون أسرارهم ويقيمون علاقاتهم، ولذلك لا يمكن أن نتصور وجود أسرة بدون مسكن، وفي هذا الصدد احتفظت لنا بعض المشاهد الصخرية المنقوشة في الصحراء عن البدايات الأولى لاهتمام الإنسان القديم بالبناء والتشييد، فضلا عن بعض الشذرات التاريخية المبعثرة في ثنايا المصادر القديمة، والتي حاولت في معظمها أن تعطينا بعض الإشارات والمعلومات المتعلقة بوصف المساكن الليبية المتنقلة التي استخدمها الرحل المتنقلين بحثا عن الكأ والشراب لماشيتهم وحيواناتهم التي استأنسوها، وإن كانت نوعا ما جد شحيحة، إلا أنها استطاعت أن تصور لنا بداية تطور العمارة المدنية الريفية في بلاد المغرب القديم.

لكي نقدم صورة واضحة عن المسكن (Mapalia) الذي كان يقطنه سكان شمال إفريقيا في القديم، يمكننا طرح الإشكالية التالية: ما المقصود بمصطلح المباليا (Mapalia) الذي لطالما تم ذكره في المصادر القديمة؟، كيف تميّز المسكن الليبي القديم؟ وما هي أهم العوامل المساهمة في انتشار المساكن (المباليا) في شمال إفريقيا؟ وما هي أهم المواد المستخدمة في بنائه؟

I. الأسباب المؤدية إلى بداية الاهتمام بالمساكن المتنقلة (المباليا): من أهم الأسباب والظروف

المؤدية إلى اهتمام سكان شمال إفريقيا بالتشييد والعمران الريفي إلى:

الاحتفاء من قساوة الطبيعة وتغيراتها المناخية، حيث تتصف منطقة شمال إفريقيا منذ القدم بمناخ متغير حسب فصول السنة، وعلى هذا الأساس كان الإنسان المغاربي يلجأ إلى الكهوف والمغارات والملاجئ الحجرية¹، إلا أنه ومع تطور الفكر الإنساني بدا يتخلص بالتدريج من هذه الملاجئ، ويحاول أن يصنع مساكن بسيطة خاصة به، وتتلاءم مع الظروف الطبيعية آنذاك، دون أن لا ننس توفر منطقة شمال إفريقيا على ثروة حيوانية كبيرة خاصة فيما يتعلق بالحيوانات المفترسة، حيث يرجع سترابون سبب

¹ - الثعالبي، عبد العزيز، 1986م، ص. 16.

كثرة تنقلات الليبيين إلى وجود الحيوانات المفترسة التي كانت تعكر صفو استقرارهم بمنطقة معينة²، وعليه نادرا ما كانوا يقيمون لفترة طويلة بالمكان الذي اختاروه، وكانوا دائما على أهبة الاستعداد للتنقل خوفا على ماشيتهم من هجمات الناهيين³.

توفر المادة الأولية المتواجدة في الطبيعة، وبداية تحول الفكر الإنساني نحو استغلالها في الحياة اليومية خاصة فيما يتعلق بالبناء والسكن، وتختلف هذه الإمكانيات بين النباتية والحيوانية مثل: نبات القصب، الطين، جلود الحيوانات، وبر الجمال...الخ.

اهتمام السكان منذ القدم بتربية المواشي وامتهانهم النشاط الرعوي مما جعلهم يستوطنون المناطق الداخلية (التلية)، هذه الأخيرة التي تتميز بتوفر المراعي والمياه، غير أنه إذا فرض عليهم الجفاف في فترات الصيف، يضطرون إلى اللجوء إلى الملاجئ المتنقلة على المساكن الثابتة، والرعاة الذين يقيمون بالبراري في فصل الشتاء كانوا مرغمين على التنقل بها كثيرا، حتى وإن جاء الصيف فإنهم ينتقلون في هجرات طويلة إلى التل أو إلى جبال الجنوب، محملين معهم مساكنهم، هذا الأمر لم يسمح لهم بإقامة مساكن ثابتة في منطقة يذهبون إليها⁴.

ظهور مجتمعات رعوية تعيش وراء استئناس الحيوان، حيث انصبت جهود الإنسان القديم على تكاثر القطيع بفعل الرعاية والرعي، ويظهر هذا جليا في الحفريات التي أجريت بمغارة كابلوتي خنقة سيدي محمد الطاهر بالأوراس، بأن أجيالا من الرعاة استخدمتها كملجأ يقيها من المطر والضباب طيلة ألفي سنة، فقد كانوا أنصاف رحل، يرتحلون رفقة عدد صغير من الغنم والماعز، أين يستقرون عند السفح الجنوبي للأوراس بخنقة سيدي محمد الطاهر من بداية فصل الربيع إلى غاية حلول فصل الخريف، لتراتع ماشيتهم من الأعشاب الطرية الغضة للمنطقة، ليغادروها مع حلول فصل الشتاء، هذا الانتجاع والحراك المتعاقب نحو الجنوب أو الشمال، كان يحدث بحسب الفصول وهو النمط الذي صار عليه مجتمع ما قبل الزراعي، اعتمد في غذائه على جمع الأعشاب والفواكه المتوفرة بالمنطقة وعلى الصيد البري والبحري⁵.

كان للتغيرات المناخية التي شهدتها منطقة شمال إفريقيا دورا كبيرا في استيطان الإنسان وبداية التفكير في صنع مسكن خاص به يتمشى والظروف الطبيعية آنذاك، هذه الظروف المناخية كانت لحد كبير من نتاج تضاريس المنطقة، واتجاهات الرياح خاصة تلك التي تهب من المحيط الأطلسي من ناحية، أو تلك التي تهب من البحر المتوسط من ناحية أخرى، ونتيجة لذلك فإن الجزء الغربي أو الجزء المواجه لساحل البحر المتوسط هم الأكثر استفادة من كمية التساقط، حيث يستقبل النطاق الساحلي الجبلي كميات كبيرة من الأمطار خاصة في فصل الشتاء لتصل في بعض المواقع إلى أكثر من 100 ملم

² - العقون، أم الخير، 2006م، ص. 02.

³ - GSELL, S., 1927, X, p. 205.

⁴ - GSELL, S., 1927, X, p. 187.

⁵ - ROUBET, C., 1997, pp. 486, 489.

في السنة، بينما في المناطق الأخرى فقتل فيها كميات الأمطار بشكل ملحوظ مما يؤثر على مستوى النشاط الرعوي والزراعي بشكل كبير⁶.

دور المرأة الليبية بعد اكتشافها للزراعة وحياة الاستقرار في بناء المأوى البسيط أو الكوخ مستعينة بمواد مختلفة كجلود الحيوانات، أغصان الأشجار وأوراق بعض النباتات، مما أمكن معها للأسرة بتعدد أفرادها للتفرغ في ممارسة مهن يدوية وصنع أدوات ضرورية تطلبتها حياة الاستقرار الجديدة، وهذا يوضحه النقوش الصخرية المكتشفة في منطقة تيسوكاي (Tissoukai) واحيران (Iheren) ومنطقة صفار بوسط الصحراء⁷.

1. **البدايات الأولى لظهور العمارة المدنية في شمال إفريقيا:** اهتم الإنسان المغربي القديم منذ عصور ما قبل التاريخ بالسكن في المغارات والكهوف، حيث اتخذها مأوى له تقيه شرور الطبيعة وهجمات الأعداء والحيوانات المفترسة التي كانت تهدد حياته باستمرار، فكانت له بمثابة الملجأ والبيت الذي هيأته له الطبيعة⁸، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخون الإغريق، وفي مقدمتهم: هيرودوت الذي يطلق عليهم اسم المغاور "Troglodytes"، وجدت بطريقة طبيعية أو تم صنعها من طرف الإنسان (مغاور اصطناعية أو فجوات طبيعية)، مثلما هو الحال مع الأثوبيون⁹، كما تحدث بليني أيضا عن شعب سكن الكهوف في بلاد المغرب القديم¹⁰، ومن أهم كهوف ومغارات الليبيين القدامى نجد: كهوف ضواحي الجزائر المعروفة باسم "قيوفيل" (Guyotville)، كهف العروي بقسنطينة، كهوف التروجلوديث (Troglodytes) بالقرب من مدينة وهران، وكهوف ايقاد (Aiguadaes) في بجاية¹¹، ومغارات طرابلس، وجنوب القطر التونسي، والأوراس، وغرب الجزائر (تلمسان)، وكهوف المغرب الأقصى، ومساكن جبل نفوسة (ليبيا)¹².

كان للكهوف قدسية خاصة لدى الليبيين القدماء حيث استخدمت في دفن موتاهم كما اتخذوها أماكن للعبادة، لذا كان يرسمون في جوانبها رسوما حيوانية وأدمية، تعبيرا عن فكرهم الديني، لأنهم يعتقدون بأنها وسيلة للدخول إلى العالم الباطني للجن¹³، واستمر تقديس بعض المغارات حتى خلال فترة الاحتلال الروماني، واعتقد المغاربة في أن الأرواح الشريرة تسكن البيوت المظلمة والكهوف، وينظر إلى بعضها بأنها مساكن لبعض المعبودات مثل: المعبود إفري (Ifri) في الجنوب القسنطيني الذي يُعتقد أن اسم

⁶- الراشدي، فرج محمود، 2014م، ص. 05.

⁷- الأندلسي، نزار، 2017م، ص. 46.

⁸- الثعالبي، عبد العزيز، 1986م، ص. 16.

⁹- HERODOTE, 1980, IV, 183.

¹⁰- PLINUS, 1969, X, 8.

¹¹- COMPARDOU, J., 1917, p.p. 291-293.

¹²- GSELL, S., 1927, XI, p. 186.

¹³- BENABOU, M., 1975, p. 270.

إفريقيا (Africa) الذي استخدم أثناء الاحتلال الروماني مشتقاً من تسميته المحلية لهذا الإله إفري قبل أن يتم تعميمه على القارة كلها"، واستمرت عبادة المغارات حتى في الفترة المسيحية حسب شهادة القديس أوغسطين الذي لام بعض السكان الذين كانوا ينزلون إلى باطن الأرض معتقدين بأنهم إذا نزلوا يكونوا أكثر قرباً من الإله¹⁴، فضلاً عن تواجد مغارة "إفرو" «Ifro» بمنطقة القبائل، جدرانها مليئة بالكتابات الليبية، وكهف الخراز «ELKHARRAZ» بين مدينتي قالمه وعين البيضاء"، أين تتواجد مغارة فيها علامات منقوشة وملونة بالأحمر،....الخ¹⁵.

مع التغيرات المناخية التي شهدتها منطقة شمال إفريقيا بدأ الاهتمام بحياة الترحال والنشاط الرعوي أكثر، هذا الأمر أجبر الإنسان على ضرورة التلاؤم مع هذا النمط الجديد من المعيشة وصنع مسكن يتماشى وحياة التنقل والترحال المستمر بحثاً عن الماء والكأ¹⁶، ومن هنا بدأ الرجل يهتمون بصنع وإقامة الخيام متفاوتة في الحجم والمساحة، تصنع من شرائط طويلة منسوجة من الصوف أو من وبر الجمال وشعر الماعز أو من جلود الحيوانات، كما قد تكون مصنوعة من هياكل خشبية قابلة للطي وبعض النباتات التي تفرها الطبيعة، إضافة إلى سعف النخيل الذي كان يستعمل أساساً في تغطية السقف، تمتاز بسهولة التركيب والفك، وغالباً ما كانت تحمل مع بعض الأعمدة والأوتاد على ظهور الحيوانات أينما رحلوا خوفاً من عدم العثور على نفس الوسائل المعتادة لإقامة مساكن جديدة¹⁷.

في هذا الصدد قال الباحث بالدور (Baldur) أنه وجد خلال رحلاته عبر الصحراء الجزائرية على تراكمت حجرية تنتشر في السهول الصحراوية، وهي بقايا سكنية لرعاة الرجل في العصر الحجري الحديث¹⁸، كما عثر نقش رسم صخري يرجع لمرحلة البقرات¹⁹ في حدود الألفية السادسة والثالثة قبل الميلاد، يصور لنا نمط حياة أسرة رعوية تعيش بخيمة مستطيلة الشكل بداخلها سرير وبعض مستلزمات العيش، بالإضافة إلى ما تبيّن مشاهد الفن الصخري بمنطقة تيسوكاي (Tissoukai) وإحيران (Iheren)

¹⁴ - Ibid., pp. 270, 272

¹⁵ - GSELL, S., 1927, X, p. 137

¹⁶ - مقدم، بنت النبي، 2015م، ص. 21.

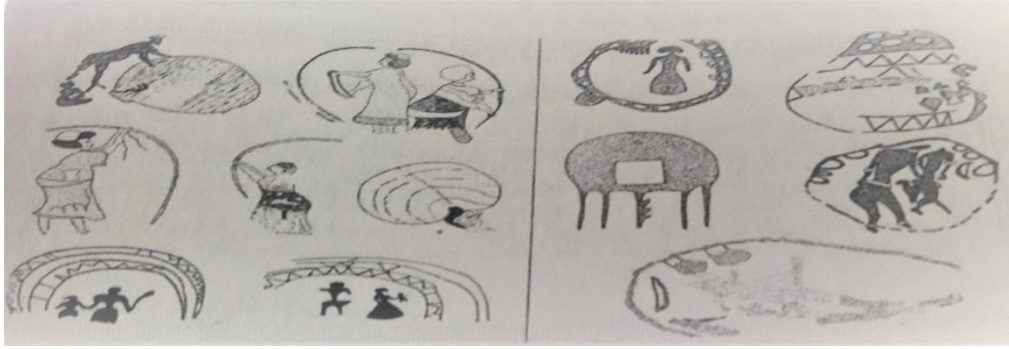
¹⁷ - GSELL, S., 1927, X, p. 187

¹⁸ - BALDUR, G., 1983, p. 175

¹⁹ - مرحلة البقرات تسمى أيضاً بمرحلة الرعي واستئناس الحيوان، حيث نقشت رسومات البقر على مختلف الجداريات، وظهر الإنسان فيها على شكل صياد مزود بالرمح، ويطارد الحيوانات كالغزلان أحياناً، أوفي شكل راعي قطعان من البقر في أحيان أخرى، وتضمنت رسومات هذه المرحلة مشاهد لعائلات في الحياة الاجتماعية بتفاصيل رائعة ودقيقة، أين أبدع الفنان فيها فكانت في قمة الإتيقان فتفنن في رسم قرون الأبقار وجعلها تعكس الواقع، كما عرفت هذه المرحلة هجرات بشرية متعددة، فجد الزوج والاثيوبيين والمتوسطين، ونلمح هذا الأمر من خلال اختلاف اللباس عند النساء والمتمثل في الفساتين والتيجان والقبعات وأدوات الزينة كمسالك الشعر والأساور والعقود، وقد مثلت وصورت بشكل رائع تدل على التحكم في استعمال الألوان، وهذا ما جعل هذه المرحلة توصف بأكبر مدرسة طبيعية للفن في الهواء الطلق... للمزيد يراجع: شنييتي، محمد البشير، 1971م، ص ص. 30، 32.

ومنطقة صفار بوسط الصحراء، هذه الأخيرة التي توضح لنا أن المرأة تصحب الرجل في رحلاته، وتشاركه في أعماله، إذ أنها هي من تتولى مسؤولية نصب الخيام، حيث تقوم بوضع هيكل الخيمة المصنوع من بعض الأغصان للطّي والاستدارة، وكذا من أغصان مستقيمة وعمودية، ومن ثمة تقوم بتغطيتها بواسطة جلود الحيوانات وحصائر من سعف النخيل المضفور، غير أنه تغير الوضع مع حقبة الجمال، أين أصبحت الخيمة تشدّ إلى مجموعة من الأوتاد المغروسة في الأرض من خلال رسوم التاسيلي ناجر²⁰.

كما ذكر الباحث اريك باتس (BATES) أنّ قبائل الليبو والمشوش كانوا يسكنون في الخيام المصنوعة من جلود الحيوانات التي ترفع بأعمدة خشبية، بحيث يسهل تثبيتها ويسهل نقلها²¹، واليوم لدى الطوارق نجد أن المرأة هي من تصنع الخيمة (الشكل 01)، وهي من تستقبل الضيوف وتهتم بشؤون البيت، ويعتبر الطوارق الزواج بمثابة بناء الخيمة، حيث المرأة ركيزتها الأساسية²².



الشكل 01: رسم صخري يجسد بناء المرأة الليبية للمسكن في القديم.

عن: الأندلسي، نضار، 2017م، ص. 47.

لم تنحصر الخيام على الرّعاة المتنقلين وإنما استعملت أيضا عند بعض المستقرين الذين فضّلوا العيش في الخيام في فصل الصيف، لأنها أكثر طراوة بالليل، وأسهل في الصيانة²³، واستمر هذا النمط السكني في الاستعمال إلى غاية المراحل التاريخية، حيث تشير بعض المصادر التاريخية إلى استخدام الخيام منذ عهود غابرة في شمال إفريقيا كملاجئ حربية أو ثكنات عسكرية، وهو ما تمّ ذكره عن امتلاك

²⁰- حقبة الجمال: تظهر هذه المرحلة مع ظهور الجمل، تداخلت هذه الحقبة مع مرحلة الأحصنة، فغالبا ما ظهروا معا في الرسوم والنقوش وإلى جانبيهما أشخاص يحملون ريشة على رأسهم وبأيديهم رمحا كالتّي كانت عند الليبيين، عرفت هذه المرحلة كل من التمثيل الفني سواء بالنقش أو الرسم، انتشرت معظم الصور الجدارية لمشاهد الجمل في الصحراء مثل: جداريات الهقار والطاسيلي وفزان والصحراء الغربية... للمزيد يراجع: بن بوزيد، لخضر، 2013م، ص. 85.

²¹- BATES, O., 1914, p. 150.

²²- بن بوزيد، لخضر، 2013م، ص. 227.

²³- GSELL, S., 1927, X, p. 187.

قبائل الماشواشا (Mashaouasha) للخيام المصنوعة من الجلود، استخدمتها لمحاربة جيوش الأسرة التاسعة عشر من الدولة الحديثة المصرية، فضلا عن الجيوش النوميديّة والرومانية التي استخدمت الخيمة في حملاتهم الحربية، وعلى وجه الخصوص القادة الكبار والأمراء والملوك، مثلما هو الحال مع خيمة الملك ماسينييسا، وخيمة نبدلسا (Nabdalsa) - مساعد يوغرطة²⁴، إلا أنّها لم تكن شبيهة بتلك الخيام التي كان يستعملها الرجل، حيث ذكر بوليب أن جيش سفاكس كان يعسكر في خيام من القصب والأوراق، والتي أطلق عليها بعض المؤرخين فيما بعد اسم "سكنيت" (Scenites)، وليس بالضروري أن تعني الكلمة اسم الخيمة بالضبط وإنما أطلق على الأكواخ الثابتة والمتنقلة عموماً²⁵، كما يذكر لاحقاً سكيبيو الأفريقي أنّه تمكّن من إضرام النار في معسكر سيفاكس في سنة 203 ق.م بمساعدة الرياح²⁶.

2. المسكن الليبي المحلي "المباليا":

أ. أصل التسمية: لجأ الإنسان الليبي القديم في بداية الأمر إلى السكن في الخيام المتنقلة، خفيفة الوزن، غير أنّها لم تكن المساكن الوحيدة لهم، بل سكنوا أيضاً في الأكواخ المصنوعة من النباتات المتنوعة وأغصان الشجر، هذه الأخيرة التي عرفت باسم المباليا "Mapalia" منذ القرن الخامس قبل الميلاد، حينما ذكر هيرودوت أن قبائل النسامون²⁷ كانوا يسكنون أكواخ مصنوعة من سيقان النباتات الملفوفة حول الأغصان²⁸، في حين ورد ذكره في كتب اللاتينيين الذين لم يوضحوا لنا معنى التسمية بالتدقيق أو مصدر اشتقاقها، وبقيت مجرد دلالات ومعاني مبهمة وفي مقدمتهم الشاعر فاليريوس فلاكوس (Valerius Flaccus) الذي يشير إلى أنّها تعني المسكن الريفي الخفيف وقابل للتفكيك بغرض النقل²⁹، أو تحمل معنى الدار أو الأكواخ المبنية من الحجارة والطين المجفف أو من أغصان الأشجار³⁰.

كما أطلقوا على مساكن المستقرين الأفارقة الفقراء الذين سكنوا في مدينة قرطاجة مصطلح مغاليا "Magalia" أو مغارا "magara"، وهو اسم قريب الشبه بمباليا "Mapalia" إلى درجة الالتباس والتداخل، ولا شك أن الأمر يتعلق بمجرد اختلاف الكتابة فقط، وهو ما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى القول بأنّه يقصد به نفس اللفظ، ويحمل نفس الدلالة المحلية، حيث يعتقد الشاعر سرفيوس (Servius) أنّه لفظ

²⁴ GSELL, S., 1927, X, pp. 187, 189.

²⁵ Ibid, p. 188.

²⁶ LASSERE, J.M., 2010, p. 01.

²⁷ قبيلة النسامون: تعتبر من أهم القبائل الليبية الكبيرة، تحدث عنها هيرودوت في الفقرتين 172 و190 نظراً لأهميتها والأنشطة التي كانت تمارسها بين الساحل والصحراء، انتشرت إلى الجنوب الغربي من قبيلة الأوسخيين، على طول المنطقة الساحلية الممتدة من خليج السرت الكبير شمالاً ومنطقة أوجلة جنوباً، تكونت من شرائح اجتماعية متعدّدة، فيها الأعيان وغيرهم، تميّز شبانها بالجرأة والقوة، وحبهم للاستكشاف والإطلاع على المناطق المجاورة لهم، مما يوحي بوجود خلفية فكرية لدى النسامونيون الذين يسعون إلى معرفة أحسن المجال الذين يعيشون فيه وإلى معرفة الشعوب التي تعيش فيه وربط علاقات تجارية معهم...، للمزيد يراجع: فنطر، محمد حسين، 2005م، ص ص. 48-49.

²⁸ HERODOTE, 1980, IX, 172.

²⁹ LASSERE, J.M., 2010, p. 01.

³⁰ GSELL, S., 1927, X, p. 191.

بونيفي الأصل، لأنّ المباليات المتنقلة استخدمت عند الرجل الذين كان نمط معيشتهم يختلف نهائياً عن نمط حياة القرطاجيين³¹، في حين جون لاسير (LASSERE) اعتبرها كلمة بونيقية يمكن أن تكون مشتقة من المصطلح (magor) أو (megor) ويقصد به المسكن أو المكان المأهول، ويمكن اشتقاق هذا المصطلح من الجذر (GWR) بمعنى: يُقيم، قد حاول بعض الباحثين تفسير هذا المصطلح (mappa) بمعنى: المنشفة أو القماش³².

في هذا الصدد وردت تسمية قريبة الشبه بمصطلح مباليا، وهي مغارا "Magara" التي تعني هي الأخرى عند المؤرخين اللاتينيين بيوت البدو خاصة منها القابلة للتفكيك والتنقل من مكان إلى آخر، ونجد هذا النوع من المساكن الريفية البدائية في إيطاليا، ويطلقون عليها لفظ تورغوريوم "Tugurium"، وهي تسمية تعني الكوخ الدائري الشكل، يتم تشييده بالقش أو جداول العشب الطويل المجفف، ونعت صنف من هذه العمارة بلفظ كازا "Casa"، أين يتخذ الجند كمراكز متنقلة لهم في المعسكرات أثناء الحروب، وتتميز بالعلو المنخفض مقارنة بالكوخ الدائري تورغوريا "Tugurium"³³.

غير أنّه بعض الإشارات لدى بعض المؤرخين الكلاسيكيين مثل: ديوديور الصقلي، وبوليبيوس، وكوريبيوس... الخ، تتحدث عن السكن الخفيف المعروف باسم (النوالات) (Goubis)، أو نواله، وأطلقوا عليه مصطلح المباليا (Mapalia)، مستغربين من طريقة حملها وجزّها؟ هل هذه النوالات كانت لها عجالات يسهل جزّها أو مهياة بطريقة تيسر حملها في العربات؟³⁴، وحدد بليني أنه يتم نقل المباليا (المساكن المتنقلة) على متن عربات، وبذلك يُجمع المؤرخين القدامى على ربط المباليا بالثقافة الرعوية والبدوية، إلّا أنّه يبقى مجرد فرضيات فقط؟

ب. مصطلح المباليا من خلال المصادر الكتابية الكلاسيكية والشواهد الأثرية:

إن مسألة البحث عن أصل الكلمة يعتبر في حدّ ذاته من أصعب المواضيع المدروسة، وهذا راجع إلى ندرة المادة المصدرية التي تتحدث عنها، ضف إلى ذلك التداخل والالتباس الذي تركه الباحثين عند تفسير ماهية اللفظ واشتقاقه، إلّا أنّنا كباحثين سنحاول تسليط الضوء على هذا المصطلح من خلال ما تمّ ذكره في بعض المصادر الكلاسيكية، وإن كانت شذرات تاريخية فقط من خلال سردهم لبعض الأحداث المتعلقة بتاريخ شمال إفريقيا القديم، ونستهل هذا الأمر من خلال ما ورد عند المؤرخين والشعراء الكلاسيكيين أمثال: بليني (Pline)، وسالوست (Sallust)، وتاسيتوس (Tacite)، وفيرجيل (Virgile)، وسيليوس إيتاليكوس (Silius Italicus)..³⁵ الخ، ففي هذا الصدد ذكر المؤرخ ساليست قوله: "يتقدم الضباط

Ibid. -31

LASSERE, J.M., 2010, p. 01. -32

شنيّتي، محمد البشير، 2001م، ص. 14. -33

أعشي، مصطفى، 2009م، ص. 75. -34

LASSERE, J.M., 2010, p. 01. -35

نحو الملك من القرى والمباليا³⁶، بينما في رواية أخرى ذكر هذا المصطلح من خلال إصرار بومبونوس ميلا (Pomponius Mela) على الطابع الريفي والمنتقل لهذه المساكن في قوله: "لا توجد مدينة على الإطلاق حولها [يقصد هنا مدينة برقة]، ولكن المساكن (المسكن) تسمى ماباليا"³⁷.

الجدير بالذكر أن هذه الروايات التاريخية حاولت أن تعطينا صورة بسيطة حول طبيعة هذه المساكن الريفية، والمواد المستخدمة في بنائها من خلال ما تمّ ذكره في رواية تيتوس ليفيوس (Live Titus) الذي تحدث عنها بقوله: "مما يشير إلى إخلاص القبائل النوميديّة إلى الملك ماسينيسا في سنة 204 ق.م، أنّها تبعت الملك في تراجعه في حملاته العسكرية مع المباليا وقطعانهم، والتي شكلت كلّ ثروتهم"، بالإضافة إلى ذلك نجد سيليوس ايتاليكوس (Silius Italicus) الذي تحدث عن المصادر النباتية التي اعتمد عليها السّكان في تشييدهم لهذه المساكن المتنقلة من خلال حديثه عن نبات القصب والأسّ والقص للتغطية³⁸، بينما يرجع جون لاسير (J.M. LASSERE) في مقاله المباليا (Mapalia) إلى البيت الشعري الذي ذكره سيليوس إيتاليكوس (Silius Italicus) روى فيه طريقة تأسيس قرطاج: "تعهد الصوريون بتأسيس مدينة جديدة على الماباليا"، أي في مكان واحد حيث كان هناك كانت مستوطنات الليبيين فقط"³⁹.

أمّا من حيث الشواهد الأثرية، فقد اكتشفت بعض المعالم القديمة التي تصور لنا نماذج عن المساكن المتنقلة المكتشفة في شمال إفريقيا، والأكوخ المصنوعة من القش والحلفاء، أو بعض النقائش الأثرية التي ورد فيها مصطلح المباليا (Mappalia)، سنحاول كباحثين في التاريخ القديم تسليط الضوء على هذه العمارة المحلية، وإن كانت بسيطة ولكنها استطاعت أن تكون اللبنة الأولى لتطور العمارة المدنية في بلاد المغرب القديم، من خلال عرض بعض هذا النقائش والجداريات الفسيفسائية، وشرح محتوى كل وثيقة منها، كالآتي:

1/ النقيشة الأولى: النقيشة المكتشفة في منطقة هنشير متيش (Henchir Mettich) المؤرخة في سنة 117 ق.م، والموجودة في متحف باردو، رقم 388، ورد فيها ما يلي:
Villa Magna Variani siue Mappalia Siga.

ترجمة النقيشة:

- إنّه يشهد على التعايش بين منزل فخم، فيلا ماجنا في فارينوس، ويعتقد أنّه منزل السناطور لوريوس فاروس، من قرية سيجا (siga)، التي يبدو اسمها سامياً ومن أصل قرطاجي، فهل هو اسم جغرافي قديم، قبل إسناد الأرض إلى مواطن روماني، أم هو اسم قرية الأكواخ التي يعيش فيها المستعمر الروماني، الذي يتمتع بحق معروف في الملكية علاوة على ذلك، تخلى بوضوح عن حياة البدو الرحل⁴⁰.

³⁶ SALLUST, 1974, X, p. 46

³⁷ LASSERE, J.M., 2010, p. 01.

³⁸ Ibid.

³⁹ Ibid., p. 02.

⁴⁰ Ibid., p. 04.

2- رسالة القديس أوغسطينوس: تحدث الباحث جون ماري لاسير (J.M. LASSERE) عن الرسالة رقم 66 التي تعود للقديس أوغسطين في عدة شذرات فقط، والمكتشفة في منطقة كالاما (قالمة حالياً)، نقلاً عن أطروحة الباحث كونترا ليتراس بيتلياني (Contra litteras Petiliani): "الذي أشار فيها إلى المحليين (Mappalienses) الذي يشكلون الرعية...، أبرشية (mappaliensis)...، المذكورة بالفعل في أعمال مجمع قرطاج الديني المنعقد عام 297م، وقد أعاد أسقف دوناتي تعميدهم، وفي ذكر آخر قال: "ستكون (mapalia) مساكن ريفية ثابتة، ولكنها بلا شك ضيقة وفقيرة"، هل هذا الاسم مرتبط بأسماء المناطق الحضرية المنتشرة بنواحي قرطاج، هذه الأخيرة التي تشهد على وجود المساكن المحلية Uia Mappaliensis يسكن فيها في ذلك الوقت كبريانوس (Cyprianus) والنائب العام ماركوبيوس (Macrobius Candidianusi)، أم عبارة عن ضاحية شعبية يسكنها في الأصل مهاجرون ريفيون إلى المدينة؟⁴¹

كل هذه الفقرات توحى على استمرار مصطلح المباليا حتى في الفترات التاريخية، وبالرغم من توافد الأقوام الخارجية على منطقة شمال إفريقيا، إلا أنّ هذا المصطلح المحلي استمر حتى القرن الخامس في عهد الوندال بدليل ما ذكره فيكتور دي فيتا (Victor de Vita) بقوله: "المكان الذي يعرف باسم المباليا". أما من حيث الفسيفساء حاولنا إدراج لوحتين توضح مشاهد عن هذا النموذج السكني من خلال:



الشكل 02: يوضح كوخ مخروطي على فسيفساء منطقة

العالية (تونس). عن: LASSERE, J. M., 2010, p. 02.

ويظهر في الصورة مشوه ومتهالك، لكن السقف لا يزال على شكل مخروطي⁴².

1- فسيفساء العالية المكتشفة جنوب المهدية -تونس- تقدم مثالين لأكوخ مخروطية الشكل (الشكل 02)، ضيقة للغاية ذات سقف مرتفع للغاية.

حاولت هذه الفسيفساء المكتشفة أن تعطينا انطباعاً خاصاً عن الحياة السائدة آنذاك، والتي يمكن أن تكون ملاجئ بسيطة للفترات الحارة أو مراكز للحراسة، لكن للأسف التمثيل الثاني للكوخ غير واضح

⁴¹ LASSERE, J.M., 2010, p. 04.

⁴² Ibid., p. 02.



الشكل 03: فسيفساء توضح نموذج للخيمة بمنطقة

الحضنة (أوثينا) (Uthina)، بتونس. عن:

LASSERE J. M., 2010, p. 05.

2/ يصعب على الباحثين تحديد وتمييز المادة التي صنعت منها الخيمة أو المباليا المتنقلة (**الشكل 03**)، ولكن يمكن أن تكون من القماش، كما لا يزال بالإمكان رؤية كوخ صغير دائري، ربما يكون مسقوفاً من القش، على فسيفساء شهيرة "للورد يوليوس" في قرطاج، والتي يعود تاريخها إلى القرن الرابع قبل الميلاد⁴³.

III. أنواع المساكن المحلية "المباليا":

اتخذت العمارة الريفية الليبية في بداية الأمر عدة أشكال متنوعة حسب طبيعة كل المنطقة وجغرافيتها، حيث تنقسم إلى نوعين:

أ. **الأكوخ المستديرة:** تمتعت هذه الأكوخ الليبية (Mapalia)⁴⁴ بهندسة محلية بسيطة، إذ أخذت إما الشكل المستدير أو الدائري، أو ممدود كما وصفها ساليست مثل القوارب المقلوبة، أي أنها تخلو من الزوايا، بحيث تتحني جوانبها من أعلاها كي تلتحم ببعضها مشكلة السقف المصنوع من المواد النباتية مثل: نبات الديس (Diss) أو من تبين الحصاد، جدرانها من القصب ومن أغصان الأشجار المشتبكة ببعضها البعض، في شكل أعواد غير مشذبة أو أنها من قصب أو برواق أو سعف النخل تبعاً لوفرة هذه المادة في الطبيعة المحيطة، وهي مساكن بحجرة واحدة، وليس لها سوى فتحة واحدة ضيقة هي الباب، تطل الجدران بطلاء من التربة الطينية المخلوطة غالباً بروت الأبقار بهدف الحفاظ على برودة المكان من أشعة الشمس، وقد تكون بيوتاً مبنية من الحجارة، ولم يتغير نوعها ولا شكلها منذ ذلك الوقت⁴⁵.

تمركز هذا النوع من المباليا الإفريقية في المناطق التلية الزراعية، وهي شبيهة بالأكوخ الدائرية المنتشرة في المناطق الإيطالية المعروفة باسم التوغوريا "Tugurium" أو الكازا "Casa" وجمعها كازي "Casae"، انتشرت هذه المساكن الإفريقية بجوار المدن، ويسكنها الفقراء من الأهالي في العهد الروماني مثل القرية الريفية المتواجدة بين مدينة إيكوزيوم (مدينة الجزائر)، وتيبازا حالياً، حملت اسم كازي كاليفنتي "Casae Calventi"⁴⁶.

⁴³ - LASSERE, J.M., 2010, p. 03.

⁴⁴ - أشار هيرودوت إلى نوع آخر من المساكن التي تبنى بكتل من الملح لدى قبيلة الامانتس، التي تسكن في المناطق الجافة، وبالتالي لا تتعرض إلى الأمطار وإلا انهارت جدرانها...، للمزيد يراجع: HERODOTE, 1980, IX, 185.

⁴⁵ - GSELL, S., 1927, X, p. 193.

⁴⁶ - محمد البشير شنييتي، 2001م، ص. 15.

عند الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا سنة 146 ق.م لاحظوا الأكواخ المنتشرة في المناطق الداخلية، وهنا أدركوا أن المنطقة عرفت مثل هذا النموذج العمراني البسيط، وهو ما ذكره كاتون (Caton) والقديس جيروم (St. Jérôme) الذين شبَّها هذه الأكواخ الثابتة بالأفران، أو أنّ الماباليا مثل السور المستدير الذي يمكن التعرف من خلاله على الساحة المغلقة التي تحمي المنزل التقليدي والماشية طوال الليل⁴⁷، وبحسب شهادة ساليست فإن البوادي الإفريقية عرفت نوعا من الأكواخ المستديرة الثابتة طويلة الشكل (شكلها الممدود)، ذات سقف له جوانب منحنية تشبه هيكل السفينة المقلوبة⁴⁸.

لما تعرضت الكنيسة الإفريقية إلى الانشقاق الكنسي سنة 305م، وبروز الجدل الكاثوليكي الدوناتي نتيجة اختلاف بين وجهات النظر في الكثير من المسائل الدينية والسياسية خاصة بعد تنصر السلطة الرومانية واعتناق قسطنطينوس الديانة المسيحية بهدف الضغط على المجامع الدينية الكنسية في قرطاج لإصدار فتاوي دينية تخدم مصلحة السلطة الرومانية، هذا الأمر أدى بالكنيسة النوميديّة السريّة إلى الانفصال وإعلان التمرد ضمن ما يعرف بالحركة الدوناتية سنة 313م، وقد غدّى هذا الصراع الديني عدة شخصيات دينية مثقفة أبرزها القديس أوغسطينوس⁴⁹، وأوبتاتوس الميلي "Optatus de Milev"⁵⁰ الذين نعتوا عدوهم ومنافسهم زعيم الحركة الدوناتية دوناتوس "Donatus" بأنّه سليل الأكواخ السود "Donatus Casae Negrus"⁵¹.

ضف إلى ذلك كان الرجل الريفي ينعت أحيانا بساكن الأكواخ السود، فيقال له: كازاريوس "Casarius" تيمنا بالمكان الذي يعيش فيه، ويظهر على النوميديين الذين يسكنون الأرياف والمناطق الداخلية كانوا يقيمون مساكن بسيطة شبيهة بالأكواخ الإيطالية توغوريا "Tuguria"، ولهذا عند مجيء الرومان للأراضي الإفريقية وبداية تغلغلهم في المناطق الداخلية لاحظوا هذا النموذج العمراني النوميدي، فأطلقوا عليه لفظ

⁴⁷- LASSERE, J.M., 2010, p. 02.

⁴⁸- GSELL, S., 1927, X, p. 193.

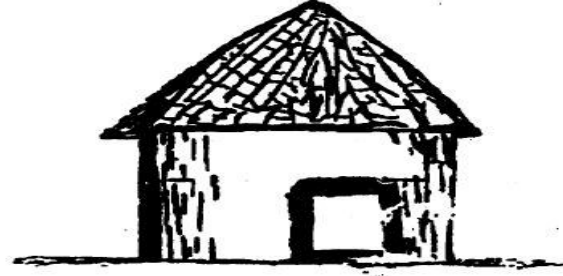
⁴⁹- القديس أوغسطينوس: اسمه الكامل اسم الكامل أوريليوس أوغسطينوس، ولد القديس أوغسطينوس في 13 نوفمبر 354م بتاغست (سوق أهراس)، أمه مسيحية (مونيكة) وأبوه (باترسوس) هو وثني روماني، اعتنق الديانة المسيحية في يوليو سنة 386م وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وقبل إجراء طقوس المعمودية استقال من وظيفة معلم الخطابة، وفي سنة 387م أجريت له طقوس المعمودية في كاتدرائية ميلانو، وصوّر كل هذه الإجراءات في كتابه الاعترافات قائلا: "بالعماد انتقي بعيدا منا وخرّ الضمير والخوف ممّا اقترفناه في حياتنا السابقة"... للمزيد يراجع: عويضات كامل محمد، 1993م، ص. 34.

⁵⁰- أوبتاتوس الميلي: اسمه الكامل أوبتاتوس الإفريقي أو أوبتاتوس الميليوي، رائد الجدل الكاثوليكي في إفريقيا، ولد في ميلاف (ميلة حاليا) في 320م، وبالرغم من غياب ونقص الدراسات التاريخية التي كتبت عنه إلا أنّ هناك إشارات إلى أنّه ذكرت أنه ولد من أب عسكري، تربي في ميلاف في أول حياته، وكان بالغ الدهاء في صغره، انتقل إلى مادور في سوق أهراس ومنها إلى روما لمواصلة تعليمه، كان وثنيا في شبابه ثم اعتنق المسيحية، ليتم تعيينه من طرف البابا داماس حبرا

في الكنيسة النوميديّة...، للمزيد يراجع: BÉRARD, VICTOR, 1857, p. 171.

⁵¹- شنيّتي، محمد البشير، 2001م، ص. 15.

توغوريا النوميديّة "Tuguria Numidarum" تيمّنا بتوغوريا الايطالية، وفي هذا السياق وصفها المؤرخ تيتوس ليفيوس بأنها مبنية من أعواد الخشب وسقفها من جداول القش تتراوح بين الحلفاء أو الطين... الخ (الشكل 04)، وهي مواد لا يزال الريفيون الفقراء يغطون بها سقف مساكنهم في وقتنا الحالي⁵².



الشكل 04: يمثل نموذج التوغوريا - Tuguria -

عن: شنيّتي، محمد البشير، 2001م، ص. 15.

ب. **الأكوخ الصحراوية:** وجد هذا النوع من الأكوخ (المباليا) الإفريقية في المناطق الصحراوية الحارة، تم تشييدها على شكل سقائف (جمع سقيفة)، تضلّل ساكنيها وتقيهم من الحرّ، ولا يتواجد لها أي إثر بحكم تلف المواد المستخدمة واندثارها.

ما تزال المرأة تضطلع بدور بناء السكن البسيط في البوادي، وتكسوها بروث الماشية المخلوط بالتبن المقطع وتنشف بالشمس، وعندما تشتد الحرارة في فصل الصيف تقوم المرأة في مجتمعات الطوارق بصنع الأكوخ من التبن للاقتصاد في استعمال الجلود⁵³.

IV. المواد المستخدمة في البناء: شيد الإنسان المغربي أول نموذج للعمارة الريفية، وهي نوع من المساكن المحلية المتنقلة، فبحسب المشاهد الصخرية أن المرأة اعتمدت في بناء الأكوخ على الطوب وبعض المواد الأولية البسيطة كأغصان الأشجار وأوراقها أو تبن الحصاد، وقد أسهمت هذه المواد البسيطة في تكوين تجمعات سكنية بدائية⁵⁴، إلا أنه فيما بعد تغير الوضع وأصبح يستخدم في البناء العيدان وتغطية السقف بالعشب الجاف⁵⁵، أو تصنع من المواد النباتية مثل:

1. **نبات البروق/ البرواق (Asphodelus microcarpus):** يصنف البرواق من الأعشاب البرية المعمّرة، يميّز هذا النوع النباتي بالأوراق المتطاولة والضيقة في ذات الوقت، وبصلة شبيهة باللفت صغير الحجم⁵⁶، وحسب روايات ماغون (Magon) أن هذا النبات ينصح قطعه في نهاية شهر مارس

⁵² - شنيّتي، محمد البشير، 2001م، ص. 15.

⁵³ - الأندلسي، نزار، 2017م، ص. 48.

⁵⁴ - LHOE, H., 1976, p. 154.

⁵⁵ - شنيّتي، محمد البشير، 2001م، ص. 15.

⁵⁶ - PLINUS, 1969, XXI, 48, 1.

وبداية شهر أفريل قبل الإزهار وكبر البذور، وبفلق السيقان وتعرضها للشمس خلال اليوم الرابع وجعلها في حزم حتى تجف⁵⁷.

يعيش هذا النوع النباتي بالأراضي البور وحواف الغابات بالمناطق التلية الجزائرية خاصة الجهة الشرقية منه، يتصف بعروق منتخفة في شكل أدران مملوءة بالماء، أوراقه تخرج من أصل واحد كورق البصل، وهي كثيرة متباعدة، ويصل طولها الخمسين سنتيمتر، دقيقة النصل مستطيلة مجوفة، تحمل أزهارا بيضاء اللون، بذورها بحجم حبات الحمص الصغير ومستديرة الشكل⁵⁸.

يعتقد أن أحد الأقوام القديمة التي تعيش في الشمال الغربي في تونس حاليا، حملت اسم هذا النبات العشبي، وتمت تسميتهم من أكواخ البروق "Asphodèles" باسم الاسفندول، وكانت أكواخ مماثلة للتي تأوي الجيوش التي ترجع لمعسكراتها حين تتوقف العمليات العسكرية⁵⁹.

2. نبات الأسل (السمار) (Juncus): يصنف هذا النوع النباتي ضمن فصيلة مستورات البذور ووحيديات الفلقة (Angoispermopsida Monocoty le Donae)، يعيش في المستنقعات أو على ضفاف الأنهار أو البحيرات أو الضايات ذات المياه العذبة أو قليلة الملوحة، لا يتعدى طول سيقانه في الغالب المترين، وتكون في العادة ملساء وصلبة، ذات أوراق شريطية تنمو ابتداء من القاعدة، أزهاره صغيرة تظهر في قمة السيقان⁶⁰.

أما تاريخيا فذكر المؤرخ بليمنوس في مؤلفه التاريخ الطبيعي عدة أنواع من الأسل، وفي مقدمتها الأسل الكبير (اسل المستنقعات) الذي يستعمل في ظفر الحصائر، بالإضافة إلى الاسل البحري بمختلف أنواعه، ويستخدم هذا النوع في صناعة السلال لأنه خفيف الوزن، والنوع الأخير من هذا النبات هو الأسل البحري أو الغديري الذي استخدمه صيادو إفريقيا في صنع أشرعة قواربهم، هذه الخبرة التي كانت تربط بطريقة غريبة تتمثل في ربط السارية بالجهة المقابلة لمؤخرة السفينة، كما استخدمه الموريون لتغطية أكواخهم المعروفة باسم المباليا⁶¹.

3. نبات القصب (Arundo phragmites): تحدث بليمنوس عن هذا النبات العشبي في كثير من المحطات التاريخية ضمن مؤلفه التاريخ الطبيعي، وخصّص له نصيبا كبيرا في فقراته، حيث تطرق له في وصف مختلف أنواعه: القصب القصير، الطويل، النحيل وسميك الحجم، كما يعتبر عدد أوراقه وألوانه ميزات فارقة بين أجناسه الكثيرة، والتي سميت بحسب الجهات التي ينمو بها، مثل: قصب جزيرة كريت، وقصب جزر إيطاليا، وقصب شمال إفريقيا... الخ⁶².

⁵⁷- PLINUS, 1969, XXI, 48, 2.

⁵⁸- ستي، صندوق، 2015م-2016م، ص. 183.

⁵⁹- GSELL, S., 1927, X, p. 46.

⁶⁰- ستي، صندوق، 2015م-2016م، ص. 181.

⁶¹- PLINUS, 1969, XXI, 72, 1.

⁶²- PLINUS, 1962, XVI, 66, 1-4.

يصنف قصب إفريقيا ضمن النباتات الجذمورية القوية ينتشر بالقرب من المجاري المائية كالسبانخ والمستنقعات أو على ضفاف الوديان أو بالقرب من المناطق الصحراوية الجافة، يتمتع بطول كبير قد يصل إلى الستة أمتار، وبعثكول مرتخي، وسبيلات مستقلة لكل منها زهرتين، وأوراقه شريطية ورمحية الشكل⁶³.

استغلت سيقان القصب منذ وقت مبكر في صنع الساكن المتنقلة أو في صناعة المزامير بهدف الصيد البري والبحري، حيث كان قناصو الطيور يفضلون استعمال قصب منطقة بانورموس (Panormos) الكريتية لصنع شراكهم، في حين كان صيادو السمك يفضلون استخدام قصب منطقة أباريتانة (Abaritana) الإفريقية، ويعتقد أنه هو قصب منطقة الأوراس حالياً⁶⁴.

4. سعف النخيل: تشهد الرسومات الصخرية عن وجود شجرة النخيل منذ ما قبل التاريخ في شمال إفريقيا، حيث المناخ الجاف الملائم لزراعتها خاصة في بعض واحاتها، أشهرها واحة أوجيلة الواقعة جنوب قوريناية على بعد 250 كلم، وواحات بسكرة والقنطرة... الخ، واستمرت زراعتها حتى في المراحل التاريخية، وأشار هيرودوت إلى هذه الشجرة وعن محاصيلها أكثر من مرة عند حديثه عن ممارسة قبائل الناسمونيين أو الكرامنيين، والامونييين للنشاط الزراعي⁶⁵، كما نلمح هذا الأمر أيضاً من خلال تجسيد صورة النخلة على الشواهد في عهد النوميديين والمور، أين نقش على عملة مستعمل⁶⁶.

لم تستبدل هذه التقنية في استخدام المواد المتاحة بمواد بسيطة بدليل ما ذكره هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد عن أكواخ قبيلة النسامون، حيث يصفها بأنها مساكنهم المتنقلة (الأكواخ) مصنوعة من نباتات خفيفة الوزن مثل سيقان الأسل الملتف أو من أوراق الأشجار وأغصانها أو من شعر الحيوانات التي كانوا يدجنونها، حتى يستطيع أصحابها من نقلها من مكان إلى آخر بحثاً عن موارد جديدة للعيش تفادياً لاستخدام المواد ذات الوزن الثقيل كالحجر والتراب المدكوك، لأن هذه الأخيرة يستخدمها الليبيون المستقرون⁶⁷.

الظاهر أن سكان شمال إفريقيا حافظوا على نفس التقنية في البناء، باستخدام نفس مواد البناء، حيث ورد نص لابن خلدون وصف فيه هذه العمارة الريفية بقوله: "يتخذ البربر بيوتهم من الحجارة والطين من الخوص والشجر ومن الشعر والوبر"⁶⁸، وأضاف أيضاً الحسن الوزان بأن السكان يقيمون بيوتهم من الألياف الخشنة التي تنبت من جذوع النخل⁶⁹.

⁶³- ستي، صندوق، 2015م-2016م، ص. 180.

⁶⁴- PLINUS, 1962, XVI, 66, 6.

⁶⁵- أعشى، مصطفى، 2009م، ص. 44.

⁶⁶- TROUSSET, M., 1985, p. 52.

⁶⁷- أعشى، مصطفى، 2009م، ص. 75.

⁶⁸- ابن خلدون، عبد الرحمان، 2005م، ص. 175.

⁶⁹- الوزان، الحسن، 1983م، ص. 58.

الجدير بالذكر أن الأكواخ التي تبنى من المواد النباتية كثيرا ما تحقق بها المخاطر من كل الجهات، إذ تكون سهلة وسريعة لألسنة النيران خاصة ما إذا كانت مرفوقة بالرياح، مما تسهم في إحداث أضرار كبيرة بين هذه المساكن المتقلة وقت قصير، وهو ما تحدّث عنه سكيبيو الأفريقي عندما تمكن من إضرام النار في معسكر سيفاكس في سنة 203 ق.م بمساعدة الرياح⁷⁰، ضف إلى ذلك أن الأكواخ ذات الجدران الرقيقة لا تكفي للوقاية من القَرّ والحر وحتى البرد القارس.

وأمام هذه التحديات الطبيعية التي كان يواجهها سكان شمال إفريقيا، أحسّوا بضرورة بناء مساكن جديدة أكثر أمانا واشدّ وقاية من الظروف الطبيعية القاسية، وتحويلها من مساكن متقلة إلى مساكن ثابتة، والتّخلي بالتدريج على فكرة التنقل والترحال المستمر أن شيدوا ما يعرف بالدور أو الديار⁷¹، والتي تحدّث عنها هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد على أنّها مساكن الليبيين الفلاحين المستقرين وليس منازل الليبيين الرحل⁷².

من الطبيعي أن يكون هناك فرق بين مساكن الرحل ومساكن المزارعين المستقرين، حيث كانت منازل الرحل خفيفة يسهل نقلها تبعا لترحالهم أما المزارعين فهم مقيمون باستمرار في المناطق التي يستغلونها، ولذلك كانت مساكنهم تتلاءم ونمط المعيشة، إذ تتطلّب الديمومة البحث عن مواد أكثر صلابة ومقاومة للظروف المناخية كالأحجار والتراب المدكوك وفروع الأشجار والطين وقوالب من الملح... الخ⁷³، حيث أصبح الليبيون يشيدون مساكنهم من خلال الخلط بين أنواع المواد المتوفرة من حجارة وطين وأخشاب ومختلف أشكال النباتات حتى تكتسب المساكن صلابة أكثر وتؤدي وظيفتها الأمنية بشكل أحسن، وهذا ما أكدته البقايا الأثرية التي وجدت في مواقع الجرمنتيون⁷⁴ من قلعة زنكرة وبقايا آثار المساكن التي وجدت

⁷⁰ - LASSERE, J.M., 2010, p. 01.

⁷¹ - ظهر هذا النموذج من العمران المدني بداية من القرن الخامس قبل الميلاد حسب روايات هيرودوت في بلاد المغرب القديم، بنيت من التراب أو الحجارة، حيث تبنى هذه الديار بعجن قوالب الطوب بخلط للطين بهشيم التبن وبالحصباء، حتى يكون صلبا، وبعد تعريضها للشمس للتجفيف فإنّها توضع متجاورة ومتراكمة، بينما في المغرب فعرفوا طريقة البناء بالتراب المدكوك (Pisé)، حيث يتمّ كبس الطين المبلول المخلوط بالجير في صناديق من ألواح الخشب يكون لفراغها الداخلي سعة الجدار المراد بناؤه وتنزع الصناديق حينما يملأ التراب ذلك الفراغ، وقد عرف هذا النوع أيضا القرطاجيين وعلموه للأهالي المحليين، ليتطوّر البناء فيما بعد ويتمّ استخدام الحجارة والتي شاع في مناطق البحر المتوسط خاصة في العمارة

الجنائزية...، للمزيد يراجع: GSELL, S., 1929, X, p. 194.

⁷² - GSELL, S., 1927, X, pp. 193-194.

⁷³ - أعشي، مصطفى، 2009م، ص. 76.

⁷⁴ - الجرمنتيون (Garamantis): عرف الجرمنيون في المصادر الكتابية باسم الجرمانت، صنف من القبائل الليبية كبيرة العدد، ويتفرع منها عدة قبائل صغيرة، قطن أفرادها تخوم المنطقة الصحراوية من إقليم وجلة إلى موطن الأثيوبيين الذين كانوا يصطادونهم للاتجار بهم، وتعاطوا التجارة والزراعة، ويعتقد أنّهم أحفاد الشعب المحارب الذي استعمل العربات في تنقلاته وحروبه...، للمزيد يراجع: HERODOTE, 1980, IV, 183.

حولها⁷⁵، حيث يرى الباحث تشارلز أنها تعود إلى الألف الأولى قبل الميلاد وتستمر إلى غاية القرن الأول بعد الميلاد، إذ كانت هذه المناول عبارة عن ملاجئ بسيطة وأكواخ من الخشب، وجدت على نتوء الجبل أين كان الجرمنتيون يقطنون مع قطعان الماشية، لتستبدل فيما بعد بمساكن مبنية من الحجارة الجافة ذات أكواخ من سعف النخيل، ثم تطورت ليصبح الطوب الطيني المصدر الأساسي للمنازل الجديدة⁷⁶.

الخاتمة:

استطاع السكن المحلي المباليا أن يعطينا صورة واضحة عن بداية الاهتمام بالعمارة المدنية الريفية في بلاد المغرب القديم، نتيجة ظروف طبيعية واقتصادية، أجبرت الإنسان على ضرورة تغيير نمط سكنه وفق المؤهلات المتواجدة آنذاك من الانتقال من العيش في الكهوف والمغارات إلى الخيام المتنقلة إلى الأكواخ المستديرة التي صنعت من الطين مرفوقة بتبن الحصاد وأغصان الأشجار أو حتى استخدام الحجارة، هذه المادة الأولية التي استمر البناء بها إلى غاية الفترات التاريخية، نتيجة تفاعل السكان المحليين مع أولئك الوافدين من الفينيقيين والإغريق، رغم أنه يصعب علينا إثبات مدى التأثير والتفاعل خاصة خلال الفترة النوميديّة، إلا أنه يمكننا القول انه خلال العهد الروماني ظلت المباليا والأكواخ منتشرة، حيث كان يقطن فيها صغار التجار والحرفيين والفلاحين، لأن هذه الفئات لم تعرف أي تقدم باعتبارهم أقل درجة قانونيا وأصحاب دخل مالي ضعيف، وحسب بعض الباحثين أن هناك تشابه كبير بين المساكن الريفية التي كانت موجودة في الفترة القديمة، وتلك الموجودة في وقت قريب، حيث لم يطرأ عليها تغيير كبير، وتدخل ضمن الديمومة البربرية، والمحافظة على الهوية الإفريقية.

⁷⁵ - أيوب، محمد سليمان، 1969م، ص. 71.

⁷⁶ - دانيلز، تشارلز، 1991م، ص ص. 65-71.

قائمة الببليوغرافيا:

1. ابن خلدون، عبد الرحمان، 2005م، المقدمة، ج.3، تحقيق عبد السلام الشداوي، الدار البيضاء.
2. أعشي، مصطفى، 2008م، أحاديث هيرودوت (425-487/489 ق.م) عن الليبيين (الأمازيغ)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
3. الأندلسي، نزار، 2017م، الحياة اليومية في المغرب القديم، دار القلم، الرباط.
4. الثعالبي، عبد العزيز، 1986م، مقالات في التاريخ القديم، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
5. الراشدي، فرج محمود، 2016م، «المغرب القديم، أضواء على عصور ما قبل التاريخ ومشارف التاريخ»، مجلة العلوم والدراسات الإنسانية، 14، ص ص. 01-16.
6. العقون، أم الخير، 2006م، «مظاهر المجتمع والحضارة الليبية من خلال الآثار المصرية القديمة»، مجلة الاتحاد العام للأثريين العرب، 7، 1، ص ص. 01-24. DOI: [10.21608/jguaa.2006.2464](https://doi.org/10.21608/jguaa.2006.2464)
7. الوزان، الحسن، 1983م، وصف إفريقيا، ج.1، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
8. أيوب، محمد سليمان، 1969م، جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، دار المصراطي للطباعة والنشر، طرابلس.
9. بن بوزيد، لخضر، 2013م، «الجمل فيما قبل التاريخ الشمال الإفريقي»، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، 2، 2، ص ص. 79-99. <https://asjp.cerist.dz/en/article/47566>
10. بن بوزيد، لخضر، 2013م، الطاسيلي أزجر فيما قبل التاريخ (المعتقدات والفن الصخري)، الجزائر.
11. دانييلز، تشارلز، 1991م، الجرمنتيون سكان ليبيا القدماء، تر: أحمد اليازوري، در الفرجاني، طرابلس.
12. شنييتي، محمد البشير، 2001م، «تطور المسكن الريفي في شمال إفريقيا قديما»، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1، 1، ص ص. 13-31. <https://asjp.cerist.dz/en/article/130751>
13. شنييتي، محمد البشير، الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى، الجزائر.
14. صندوق، ستي، 2015م-2016م، الثروة الحيوانية والغطاء النباتي في الجزائر خلال العصور القديمة، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ القديم غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أحمد بن بله، وهران، الجزائر.

15. فنطر، محمد حسين، 2002م، «قبيلتان لوبيتان: الجرميون والنسمونيون»، مجلة أدوماتو، 5، ص ص. 45-52. <https://archive.alsharekh.org/Articles/312/21123/479048>
16. كامل، محمد عويضات، 1993م، الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى، دار الكتب العلمية، لبنان.
17. مقدم، بنت النبي، 2015م، «الفن المعماري في إنشاء المباني السكنية في الجزائر القديمة»، مجلة الدراسات التاريخية، 16، 2، ص ص. 21-34. <https://asjp.cerist.dz/en/article/27783>
18. BALDUR, G., 1983, « Foyers néolithiques et paléoécologie au Sahara », in Actes du colloque international de Béni-Abbes, pp. 175-183.
19. BATES, O., 1914, The eastern libyans, (an essay), London.
20. BENABOU, M., 1975, La résistance Africaine à la romanisation, Paris.
21. BERARD, V., 1857, Les saints de l'Algérie, Paris.
22. COMPARDOU, J., 1917, « La nécropole de Taza (Maroc) », in B.S.G.A.O, 37, pp. 01-40.
23. GSELL, S., 1927, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, X, XI, Paris.
24. HERODOTE, 1980, Histoires, IV, trad. par: Pierre Henri Larcher, Paris.
25. LASSERE, J. M., 2010, « Mappalia », In Encyclopedie berbere, pp. 4568-4573.
26. LHOUE, H., 1976, Vers d'autres Tassilis, nouvelle découverte au Sahara, Paris.
27. PLINUS, 1962, Histoire naturelle, XVI, trad: J. André, Paris.
28. PLINUS, 1969, Histoire naturelle, X, XXI, trad: J. André, Paris.
29. ROUBET, C., 1997, Economie pastorale préagricole en Algérie orientale, Paris.
30. SALLUSTE, 1974, La Guerre de Jugurtha, trad.: Ernout, Paris.
31. TROUSSEL, M., 1957-1959, « Arbres et plantes sacrées, palmier et sylphium », in R.S.A.C., LXX, pp. 05-64.